سلسلة "المعارف القانونية والقضائية"

# الخطاب السياسي في المغرب

## بين منزلقات البلاغة وزلات اللسان

د. عثمان الزياني

أستاذ باحث في القانون الدستوري والعلوم السياسية

تقديم : د. عماد عبد اللطيف

منشورات مجلة الحقوق

## الفهرس التفصيلي


تصدير : ..... 3

نحو توجه عربي في دراسة الخطاب السياسي : الواقع والآفاق

تقديم الدكتور عماد عبد اللطيف ..... 5

مقدمة عامة ..... 13

- القسم الأول: مقاربة لنسق خطاب الفاعلين ومداخل أعطاب الخطاب السياسي ..... 19

الفصل الأول: في نقد بلاغة خطاب الفاعلين ..... 23

أولا : الخطب الملكية: مقاربة في مورفولوجيا النص وبلاغة الهيمنة ..... 24

1 - مقاربة الطقوس والبناء المورفولوجي للخطب الملكية ..... 24

2 - تجذر منظور "الملكية المعارضة" وتأكيد مشروعية الإنجاز والفعل ..... 29

ثانيا : خطابات رئيس الحكومة بين المحددات السيكو-إستراتيجية والأعطاب

البلاغية واللفظية ..... 35

1 - المحددات السيكو-إستراتيجية لخطابات رئيس الحكومة ..... 36

2 - الأعطاب البلاغية واللفظية في خطابات رئيس الحكومة ..... 40

ثالثا: مكامن اعتلال الخطاب الحزبي ..... 46

1 - المتغيرات المتحكمة في إنتاج الخطاب الحزبي ..... 46

2 - الخطاب الحزبي الذي يلتقط كل شيء ..... 51

# نحو توجه عربي
# في دراسة الخطاب السياسي

## الواقع والآفاق

تشهد الأعوام الأخيرة اهتمامًا متزايدًا بتحليل الخطاب السياسي في العالم العربي، يتجلى في تنامي البحوث المؤلّفة والمترجمة، والفعاليات الأكاديمية الدورية وغير الدورية، وارتفاع أعداد الباحثين وتعدد اختصاصاتهم، وتنوع المقاربات والمنهجيات والأطر النظرية. هذا الازدهار المعرفي يُنبئ بإمكانية تبلور توجه عربي في تحليل الخطاب السياسي، قد يكتمل تشكله على نحو جلي خلال السنوات القليلة المقبلة. ويمكن لنا من خلال النظر الفاحص إلى الإسهامات العربية في تحليل الخطاب السياسي رسم بعض ملامح هذا التوجه؛ وسوف أتخذ من كتاب «الخطاب السياسي في المغرب» للأستاذ الدكتور عثمان الزياني– الذي أسعد بتقديمه – أنموذجًا لرصد هذه الملامح؛ إذ إنه يمثل أيقونة للكثير من الدراسات العربية الراهنة.

### الملمح الأول: الاهتمام بتحليل الخطاب السياسي المعيش

اعتادت الدراسات التقليدية أن تعالج الخطابات السياسية التاريخية القديمة، ونادرًا ما انشغلت بتحليل الخطابات الراهنة، في نفس زمن إنتاجها. إن إحدى نقاط تميز كتاب «الخطاب السياسي في المغرب» أنه يعالج خطابات حيّة راهنة، تُنجز أفعالاً سياسيّة كل صباح. فهو يدرس بالتفصيل الخطاب السياسي للمؤسسات السياسية الملكية والحزبية الراهنة في المملكة المغربية، ويحلل نصوصًا وخطابات أنتجت في الأعوام القليلة الماضية.

لقد عانت الدراسات العربية عقودًا طويلة من ضعف الروابط مع الواقع الحاضر، لصالح الانهماك في نصوص الماضي؛ ويمثل كتاب الأستاذ الدكتور عثمان الزياني مساهمة مغايرة تدعم الوشائج بين الأكاديمية والحياة، وتربط المعرفة بالواقع. وعلى الرغم من أن الأعمال العربية في تحليل الخطاب السياسي ما تزال تولي الاهتمام الأكبر للنصوص التراثية، فإن النزوع نحو دراسة الخطابات الراهنة المعيشة يزدهر أيضًا. من هنا تكمن أهمية دراسة الدكتور عثمان الزياني؛ فهي علامة على هذا التوجه الجديد، وحافزًا باتجاه تأصيله.

### الملمح الثاني: حضور البُعد النقدي

لقد هيمنت المقاربتين الوصفية والمعيارية على الدراسات التقليدية للخطاب السياسي العربي. وهو ما يُمكن تفسيره بأمرين؛ أما أولهما فهو هيمنة المناهج الوصفية على العلوم الاجتماعية لزمن طويل. وفي الحقيقة فإن المنعطف النقدي في العلوم الإنسانية حديث عهد نسبيًا، ويمكن النظر إلى مدرسة فرانكفورت بوصفها الأساس الفلسفي لهذا المنعطف. وفيما يتعلق بدراسات الخطاب، فإن المنعطف النقدي في الدراسات الأنجلو سكسونية يقترن بما يُعرف باللسانيات النقدية critical linguistics، والتحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis. أما في الدراسات الفرنسية فإن أعمال فوكوه كانت ذات تأثير جذري في تأسيس مقاربة نقدية للخطاب. أما الأمر الثاني فهو هيمنة علم البلاغة بمعياريته التقليدية على حقل تحليل الخطابة السياسية.

ويمثل كتاب «الخطاب السياسي في المغرب» خطوة مهمة في مسار المقاربة النقدية للخطاب السياسي العربي المعاصر. فهو يُسائل العلاقة بين الخطاب والسلطة والتلاعب على نحو جلي. ويكشف عن تناقضات الخطابات المهيمنة، وفجواتها، والمسكوت عنه فيها. وفي الحقيقة، فإننا بحاجة إلى تعزيز المقاربة النقدية للخطاب السياسي العربي، نظرًا لوجود تاريخ طويل من إساءة استعمال الخطاب، وتراجع في دور العلم في تقديم فحوص ومساءلات علمية دقيقة للخطاب السياسي تحديدًا.

### الملمح الثالث: المقاربة عبر النوعية للخطاب السياسي

الخطاب السياسي ظاهرة إنسانية متعددة الأبعاد؛ يتضافر فيه النفسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والعلمي والتاريخي .. وغيرها. ومن ثمّ، فإن دراسته دراسة شاملة

تتطلب مقاربة عبر نوعية تُجلي هذه الأبعاد المتعددة. وثمة تجليين للمقاربة عبر النوعية للخطاب السياسي؛ الأول: تعدد المنهجيات والمقاربات المستعملة في التحليل، والثاني: تعدد روافد التأسيس النظري لتحليل الخطاب السياسي. ويقدم كتاب «الخطاب السياسي في المغرب» أنموذجًا متميزًا للمقاربة العابرة للتخصصات في تحليل الخطاب السياسي. فالكتاب يُفيد من أطروحات نظرية تنتمي إلى مجال واسع من الحقول المعرفية مثل العلوم السياسية وعلوم التواصل وعلم الاجتماع والسيميوطيقا والبلاغة وعلم النفس وغيرها. وهو يُعالج عددًا كبيرًا من الظواهر المتباينة، التي يجمع بينها كونها تجليات للخطاب السياسي؛ مثل الفواعل السياسيين، وأعطاب الخطاب، والحجاج، وفجوة المصداقية السياسية، والاستعارة، والتضفير الخطابي، والتصفيق، وطقوس الفرجة. وفي معالجته لهذا الحشد من الظواهر المهمة، يستعين بأطر نظرية متعددة؛ منها نظرية الاستعارة المفهومية، والفرجة، والفواعل الاجتماعيين، والعنف الرمزي، وبلاغة الجمهور. والكتاب، من ثمّ، يوظف عدة مصطلحية ومفهومية متنوعة، تُعدُّ مجلىً للمقاربة عبر النوعية التي يتبناها الكتاب. وعلى الرغم من تعدد الأطر النظرية، فإننا نلمح حالة جلية من التناغم النظري والتعاضد المنهجي في الكتاب.

### الملمح الرابع: دراسة استجابات الجمهور

اعتادت الكتابات العربية حول الخطاب السياسي التركيز على المتن اللغوي للخطباء السياسيين، وتقديم تحليلات شبه شكلية لأساليبه، وبنيته، وطرائق حجاجه.. إلى آخره. يؤدي هذا الانشغال باللغة إلى تهميش أبعاد أخرى للخطاب، لا تقل أهمية في محاولات فهمه وتحليله وتقييمه؛ مثل دراسة سياقات إنتاجه وتداوله وتلقيه، ودراسة الاستجابات التي تُنتج بإزائه. وفي حين مُنح اهتمام محدود للغاية لدراسة السياقات، كاد يكون الاهتمام بدراسة الاستجابات معدومًا. وكان هذا التجاهل الأكاديمي لاستجابات الجمهور حافزًا على تأسيس توجه معرفي يُعنى على نحو الخصوص بدراستها؛ أعني «بلاغة الجمهور». ويمثل كتاب «تحليل الخطاب السياسي في المغرب» إسهامًا مهمًا في توظيف «بلاغة الجمهور» لدراسة الاستجابات الجماهيرية للخطاب السياسي المغربي الراهن. وهو يُعدُّ من هذه الزاوية باكورة الدراسات المغربية المعنية بتوظيف الحقل المعرفي لبلاغة الجمهور في مقاربة ظواهر الخطاب السياسي المغربي. ويُعدُّ، من ثمّ، نقطة انطلاق متميزة، نحو مزيد من الدراسات في هذا الحقل.

تمثل هذه الملامح الأربعة مواطن تميز لكتاب «الخطابة السياسية في المغرب»، بين أعمال أخرى تُنتج في هذا الحقل المعرفي. وهي في الآن ذاته تمثل سمات تيار عربي في تحليل الخطاب، ربما يتشكل الآن في كثير من الأوساط الأكاديمية. ولكي نستكمل رسم صورة راهنة للبحث في الخطاب السياسي العربي الراهن، فإننا بحاجة إلى استكشاف الفجوات التي تحتاج إلى تجسير خلال الأعوام المقبلة. إذ إن تيار تحليل الخطاب السياسي العربي المزدهر كميًا وكيفيًا، ما زال يعاني من فجوات جلية، يمكن رصدها فيما يأتي.

### الفجوة الأولى: ندرة دراسة المدونات الضخمة

الشائع بين الدارسين تحليل مدونات صغيرة الحجم، باستعمال أدوات التحليل التقليدية. واختيار مقتطفات محددة للاستشهاد والتمثيل. ويؤدي هذا إلى مشكلات جمّة في هذه الدراسات. فصغر عينة الدراسات يحول دون الاطمئنان إلى نتائجها، وقابلية النتائج للتعميم. كما أن انتقاء الأمثلة يُعرض مصداقية البحث للخطر؛ إذ قد يؤدي إلى تفاقم مخاطر تحيز الباحثين. وعلى سبيل المثال، فإن ورود تعبيرات استعارية معينة في سياق تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، لا يكتسب قيمة حقيقية دون أن نأخذ في الاعتبار تواتر ورودها في المدونة الكلية لهذا السياسي، ونسبة تكرارها الإجمالي قياسًا إلى تعبيرات أخرى مستعملة لديه، والدلالة الإحصائية لهذه النسبة بالقياس إلى خطابات سياسية أخرى راهنة أو قديمة. إن قابلية الوصول إلى تعميمات علمية بشأن الخطاب السياسي يرتهن بتغيير تقاليد البحث العربي فيه، والتحول من دراسة مدونات محدودة إلى دراسة مدونات ضخمة. والانتقال من دراسة المقتطفات المختارة إلى دراسة المدونات الكاملة، ومن الاستشهادات المجزوءة إلى التحليل الشامل.

يرتبط بهذا التحول تحولا آخر من استعمال آليات التحليل اليدوي إلى توظيف آليات التحليل الآلي. ولحسن الحظ فإن هناك تطورًا هائلا في البرمجيات الحاسوبية المعنية بمعالجة اللغة. وثمة حقل معرفي كامل هو لسانيات المدونات corpus linguistics يتيح معالجة المدونات اللغوية الضخمة، وتقديم بيانات أولية تصلح منطلقًا لدراسة الخطاب. وتتزايد في الوقت الراهن الدراسات الأكاديمية التي تدمج بين حقل تحليل الخطاب وحقل لسانيات المدونات، إلى حد ظهور حقل معرفي كامل يمزج بينهما هو تحليل الخطاب المؤسس على المدونات corpus-based discourse analysis.

### الفجوة الثانية: هيمنة العمل الفردي على دراسة الخطاب السياسي

إنّ جُلَّ الدراسات العربية للخطاب السياسي يُنجزها باحثون أفراد، ونادرًا ما نرى تعاونًا ثنائيًا أو ثلاثيًا، ناهيك عن فرق بحث كبيرة تحلل خطابًا سياسيًا ما. إن هذه الفجوة، للأسف، موجودة في معظم الدراسات الإنسانية والاجتماعية العربية، إذ لم تترسخ بعد تقاليد العمل في مجموعات بحث كبيرة. لكن أثرها السلبي يتعاظم في حقل تحليل الخطاب بسبب الحاجة الملحة إلى دراسة مدونات ضخمة، من زوايا متعددة، وصعوبة تحقيق ذلك بواسطة الجهد الفردي. إنّ غياب ثقافة العمل الجماعي في تحليل الخطاب، يُفقد البحث فيه ميزة أخرى شديدة الأهمية له هي تعدد التخصصات اللازمة لمقاربته. فتحليل الخطاب السياسي لا يمكن إلا أن يكون عابرًا للتخصصات، فلا يمكن مقاربته دون أدوات معرفية من حقول معرفية عدّة مثل اللسانيات والبلاغة والسيميوطيقا وعلوم الاتصال وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ وغيرها. ونظرًا لأن ظاهرة الباحث الموسوعي توشك أن تنقرض، فإن تعدد الباحثين المنتمين إلى حقول معرفية متباينة يبدو السبيل الأمثل لتحقيق مقاربة دقيقة شاملة للخطاب السياسي العربي.

إنني أتفهم الصعوبات التي تحول دون تعاون الباحثين في الخطاب السياسي في فرق عمل جماعية؛ فما زالت ثقافة العمل البحثي الجماعي ضعيفة الحضور في الأكاديميات العربية، وبخاصة في حقل العلوم الإنسانية، حيث يغلب العمل الفردي على التأليف، ويكاد يقتصر العمل الثنائي على التحرير والإشراف على الكتب الجماعية. ومع ذلك، فإننا بحاجة ماسة إلى تغيير ثقافة العمل البحثي، لصالح تعزيز العمل الجماعي، الذي يُثري البحث على نحو مؤكد.

### الفجوة الثالثة: مركزية الخطابة السياسية

تحظى الخطابة السياسية بنصيب الأسد من البحث في تحليل الخطاب السياسي. ويبدو هذا مبررًا من زاوية كونها نوعًا تقليديًا واسع الحضور والتأثير في المجتمعات المعاصرة. ومع ذلك، فإن ثمة تهميشًا جليًا لأنواع أخرى مهمة؛ مثل الإشهار (الإعلان)، والمناظرة، والمقال، والمقابلات المرئية والمسموعة والمقروءة، والبيانات الصحفية، والفوتوغرافيا، والأفلام التسجيلية، والبرومو، وغيرها من الأنواع التي تنجز وظائف

سياسية، وتُتداول في فضاء سياسي. وآمل أن تشهد السنوات القليلة المقبلة تزايدًا في الدراسات المكرسة لهذه الأنواع، بما يحقق توازنًا بينها وبين دراسة الخطابة السياسية.

**الفجوة الرابعة: غياب الدراسات المقارنة للخطاب السياسي في العالم العربي**

يتسم العالم العربي بثراء الخطابات السياسية فيه. فهناك تنوعٌ في الأنظمة الحاكمة ، وفي أشكال العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وفي تقاليد التواصل السياسي بين النخبة والجمهور، وفي أدوات التواصل، وفي الذخيرة الخطابية التي يُتكأ عليها، وفي حدود الاستجابات المتاحة للجمهور، وغيرها. هذا التنوع يُعدُّ ميزة وتحديًا في الآن ذاته. فهو ميزة لكونه علامة ثراء خطابي، يُحفز على تطوير أدوات علمية ناجعة لمعالجته. لكنه في الوقت نفسه يضع تحديًا أمام الباحثين، إذ يتطلب إنجاز بحوث مقارنة تُتيح رصد نقاط التلاقي والتمايز بين هذه الخطابات. وللأسف فإن دراسات تحليل الخطاب العربي المقارِنة ما تزال محدودة للغاية. وينتج عن ذلك لجوء الباحثين إلى تعميم النتائج المأخوذة من دراسة الخطاب السياسي في قطر عربي ما على بقية أقطار العالم العربي. أو التعامل مع النتائج التي يصلون إليها على أنها ذات طابع محلي. والاختيار الأول - للأسف - مشكل شائع؛ إذ يؤدي إلى تعميمات خطرة في كثير من الأحيان، ومن ثمّ، فإنه يجدر بنا دومًا أن نتحرج في إصدار تعميمات عن الخطاب السياسي العربي، من دون الاستناد إلى تحليل مدونة ممثلة له. وفي الحقيقة فإن تجسير هذه الفجوة مرهون بإنجاز دراسات مقارنة، وبتعزيز التعاون بين الباحثين العرب، وإذكاء التعاون بين الباحثين في شكل فرق عمل منسجمة.

**الفجوة الخامسة: الأثر السلبي لتحيزات الباحثين**

تحليل الخطاب السياسي حقل معرفي يقع في دائرة العلوم الإنسانية. ويُعد موضوع الذاتية والموضوعية من أكثر الإشكاليات التي تواجهه حساسية. وتزداد خطورتها بسبب التأثير المتوقع لتحيزات الباحثين وميولهم وانتماءاتهم السياسية، في كل إجراءات البحث؛ بدءًا من اختيار المادة المدروسة، مرورًا باختيار المنهج والمقاربة وإجراءات التحليل، وصولا إلى طرق تأويل معطيات البحث ونتائجه. ويزداد تأثير مأزق التحيز وضوحًا في حال تبني المقاربة النقدية تحديدًا؛ بسبب البُعد النقدي الذي يتخذه الباحث إزاء المادة المدروسة.

إننا بحاجة في عالمنا العربي إلى الوعي بضرورة تقييد الأثر السلبي للميول والمصالح السياسية في دراسة الخطاب السياسي، حتى لا تتحول البحوث المنتَجة في حقل تحليل الخطاب إلى صيغة علموية من المنشورات السياسية. ولتحقيق ذلك، لابد من ضبط إجراءات التحليل، والإعلان الجلي الشفاف عن كل إجراءاته، والبرهنة الدقيقة الوافية على كل ادعاءاته ونتائجه، وتحديد موقف الباحث المسبق من موضوع بحثه، والكشف عن تحيزات الباحث وانتماءته، ومصارحة القارئ بها. إننا بحاجة إلى أن نؤمن بأن المعرفة أهم من المصلحة، وأن العلم باقٍ والانتماء السياسي زائل. وأن أفضل دليل على المصداقية المعرفية أن يتفق من يخالفني الرأي والميول والهوى مع تحليلاتي ونتائجي.

خاتمة:

لقد تناولتُ في هذه المقدمة الموجزة بعض ملامح ما أظن أنه تيار يتشكل في تحليل الخطاب السياسي العربي. وأعدُّ كتاب «الخطاب السياسي في المغرب» أيقونة لهذا التيار، وتجسيدًا لتلك الملامح. كما تناولتُ أهم الفجوات التي أرى أنها تحتاج إلى جهد بحثي مستقبلي لتجسيرها، وتخطيها. وآمل أن يكون كتاب «الخطاب السياسي في المغرب» حلقة مهمة من حلقات تحليل الخطاب السياسي في العالم العربي في الفترة المقبلة، وأن يكون ملهمًا لأعمال بحثية أخرى عديدة.

د. عماد عبد اللطيف

الدوحة 14 أبريل 2016